خطبة : قصة قارون

الخطيب: يحيى سليمان العقيلي

معاشر المؤمنين

قصة من القصص القراني فيها عبرةٌ لأولي الألباب نقف معها اليوم ، تحكي عاقبةَ البطَر والطغيان المادي ، قصةُ رجلٍ أصبح مثالا لطغيان المال على النفس البشرية لتنحرف كبرا وبطرا وبغيا ، إنه قارون عباد الله حكى القران كبره وبغيه كما حكى عاقبته ومآله،،

قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ \* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ \*

كان قارون من بني إسرائيل ، وكان من أقارب موسى عليه السلام ، ولكنَّه بغى على قومِه وطغى بما أُوتيه من الأموال العظيمة المطْغية، وأعطاه الله من كنوز الأمْوال العظيمة التي يعجز عن حمل مفاتيحها العددُ من الرجال من أولي القوَّة،

فكيف بالخزائن والأموال ذاتها ؟

قال له الناصحون من قومُه: لا تفرحْ بهذه الدُّنيا العظيمة ولاتفتخِر بها ولاتطغى ، فإنَّ الله لا يحبُّ الفرحين المستكبرين بها،

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

أنفِق لآخرتِك ولتكن هي غايتك ، واستمتِع بدُنياك، وأحسِنْ إلى عباد الله كما أحسن الله اليك، ﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالتكبُّر والعمل بمعاصي الله.

عندها ردَّ قارون على قومِه بعجرفةٍ وكبرياء قائلاً: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾؛

إنَّما أدركت هذه الأموال بكسْبي ومعرفتي كيف يُجنى المال، ونسي أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78

خرج ذاتَ يومٍ بحاشيته على قومِه بكامل زينته ، يتبختر بكبرياء وتفاخر ، فاغتّر بهذا المشهد ضعفاء الإيمان ممن تعلقت قلوبهم بالدنيا وإنبهرت بزينة قارون ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ \* )

فرد عليهم أهلُ العلم والإيمان "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ ﴾ العاجل من عبادته ومحبَّته والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجِل من الجنَّة وما فيها ﴿ خَيْرٌ ﴾ ممَّا تمنَّيتم ورغبتُم فيه، ولا يوفَّق لذلك إلاَّ الصَّابرون.

فلمَّا تمادت بقارون حالة البغْي والفخْر والخيلاء ، بغَتَه العذاب، فخسف اللهُ به وبدارِه الأرض، فما كان له من جَماعةٍ أو عصبة ينصُرونه، فما نُصِر ولا انتصر، جزاءً من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد اللّه، أنزله اللّه أسفل سافلين، هو وما اغتّر به، من داره وأثاثه، ومتاعه.

عندها عرف الَّذين تمنَّوا مكانه بالأمس من الَّذين يريدون الحياة الدُّنيا أنَّ الله يضيق الرِّزْقَ على مَن يشاء ويبسطُه لمن يشاء، وعلموا أنَّ بسْطَه لقارون ليس دليلاً على محبَّته، وأنَّ الله منَّ عليْهِم فلم يُعاقبْهم على قولِهم، وإلاَّ أصبح مصيرهم كقارون .

ثبت في الصحيح عند البخاري : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " بينا رجل يجر إزاره إذ خُسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة " .

وفقنا الله للبر والتقوى ، وأعاننا على العمل الذي يرضى ، أقول ماتسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .

معاشر المؤمنين

من فوائد ودروس قصة قارون

أنَّ المال يكون وبالاً وحسْرة على صاحبِه إذا لَم يستخْدِمْه في طاعة الله ويتجنّب به الحرام قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 36]

ومن دروسها : أنَّ كثرة المال ليستْ دلِيلاً على محبَّة الله ورضاه عن العبد؛ قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ \* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: 55 - 56]، روى الإمام أحمد في مسنَده من حديث عقبة بن عامر أنَّ النَّبيَّ - صلَّى الله عليْه وسلَّم - قال: ((إذا رأيت اللهَ يعطي العبدَ من الدنيا وهو مقيم على معاصيه، فإنَّما ذلك منه استِدراج))، ثمَّ تلا رسولُ الله - صلَّى الله عليْه وسلَّم -: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: 44][2].

ومن دروسها : أنَّ المعاصي قد تُعَجَّل عقوبُتها في الدنيا قبل الآخرة، فقارون عاجله اللهُ بالعذاب بالخسْف، فجعله عِبْرَةً للآخِرين؛

قال تعالى: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: 40].

ومن عبرها : أنَّ الله تعالى يبسط الرِّزق لِمَن يشاء ويضيِّقه على مَن يشاء؛ لحكمة بالغة ، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ [العنكبوت: 62].

وأخيرا فإنَّ هذا المال عرَضٌ زائل، ومتاعٌ مُفارق؛ قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: 20]،

روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنَّ النَّبيَّ - صلَّى الله عليْه وسلَّم - قال: ((يتْبع الميتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد؛ يتبعه أهلُه ومالُه وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله))[3].